

**الزوايا والتصوف في الجزائر بين المؤسسة الدينية والمرجعية هوياتية
-الزاوية العلوية وثنائية البعد الروحي والوظائف الاجتماعية-**

*Zawiyas and Sufism in Algeria between religious
institution and identity reference The Alawi zawiya
and the bi-dimensionality of spiritual and social
functions*

إعداد:

د. مكناس مختارية؛ أستاذة محاضرة بجامعة ابن خلدون تيارت
أ. كرايس الجيلالي؛ أستاذ مؤقت بجامعة أحمد ابن يحيى الوشرسي تيسمسيلت

Prepared by:

Dr. Moukhtaria Meknes, Lecturer at Ibn Khaldoun University, Tiaret.

Mr. Kerais Djillali, Temporary lecturer at Ahmed Ben Yahya
Alwancharissi University, Tissemsilt.

المخلص:

يشهد الحقل الديني تحولات سريعة خاصة في المرحلة الراهنة، إذ أضحت أهم المؤسسات الدينية وبالخصوص الزاوية كفضاء ديني، وعليه نحاول فهم هذه التحولات لا سيما في علاقة هذه المؤسسة الدينية المرجعية، بالفضاء السياسي، الوقوف على التراث الديني، والثقافي، الذي يعد أحد المرجعيات الهوياتية، فقد تساعدنا هذه التحولات، على فهم البنية الداخلية للزاوية من حيث نظامها الداخلي وأبعادها، إلى جانب الطقوس، والاحتفالات الدينية، التي تقوم بإحيائها بشكل دوري، وهذا من خلال رؤية سوسيولوجية تهدف للوصول إلى معرفة أعمق حول كيفية تشكل المرجعية الهوياتية، ذات الخلفية الدينية من خلال التنشئة التي يتلقها المريدون داخل الزاوية كفضاء ديني.

الكلمات المفتاحية: الجماعة المرجعية، التدين الصوفي، الطريقة العلوية، الهوية، المؤسسة الدينية.

Abstract:

The religious field is witnessing rapid changes, especially in the current stage, as it touches the most important religious institutions, especially the zawiya as a religious space, and accordingly we will try to understand these transformations, especially in the relationship of this religious institution of reference, to the political and environmental space, and to stand on the religious and cultural heritage, which is one of the identity references These transformations may help us to understand the internal structure of the zawiya in terms of its internal system and dimensions, as well as rituals and religious ceremonies, which it revives periodically, through a sociological vision that aims to reach a deeper knowledge about how the identity reference is formed, with a religious background from During the upbringing that the devotees receive inside the zawiya as a religious space.

Keywords: reference group, Sufi religiosity, the Alawite way, identity, religious institution.

مقدمة:

تخشى الحياة الاجتماعية من الفراغ الديني¹ والمجتمعات البشرية حديثة كانت أو بدائية مستتيرة أو تقليدية لا يمكنها العيش دون فكرة الديني، فحتى نكران الدين هو نوعا من التدين، الذي يمنح الإنسان فرصة العيش بالحد الأدنى من الدين، ومن حضور الله في حياته، لكن يستحيل تصور مجتمع دون مرجعية دينية، ودون عقيدة، دون قوة خفية يلقي عليها ثقله ويلجأ إليها عندما تسد في وجهه كل السبل، فحتى الآلهة التي يصنعها الإنسان بيده، هي في الواقع تعطيه نوعا من الشعور بالأمان، وهي تخبره أن هناك عالما آخر وقوة خفية، يمكن أن تحل أعقد مشكلاته، فهذه هي وظيفة الدين، تحقيق الخلاص في العالم الأخروي، وتقديم الإجابات في العالم الدنيوي.

وإذا سلمنا أنه لا جدال ولا نزاع حول حاجة البشري إلى البعد الديني، تبقى توجعنا مشكلة أخرى وهي كيف نمارس الدين، وهل هناك تطابق وتشابه بين الدين كنص والدين كممارسة؟ وهل الدين هو التدين؟ بل يمكن أن نذهب أبعد من ذلك، هل التدين هو أن نلتزم بالشعائر والنسك؟ أم هو شيء آخر متعلق بطبيعة ممارسة الدين وخصوصية كل مذهب وكل فرقة، عن طريق نكهاتها الخاصة التي تضيفها إلى الدين كوجبة رئيسية، ليصبح التدين تعبيراً عن التناقض حتى داخل الدين الواحد، وهذا ما أشار إليه «علي شريعاتي» حيث يقول: الدين ظاهرة مذهشة تلعب في حياة الناس أدوار متناقضة، إذ يمكن له أن يدمر أو يبث الحيوية، يستجلب النوم أو يدعو إلى الصحو يستعبد أو يحرر، يعلم الخنوع أو يعلم الثورة² لا شك أن المفكر يتحدث هنا عن التدين بصفته فهما وتأويلا للنص الديني، الذي يبقى ثابتاً، لكن عندما ننقله إلى عالم الممارسة سيتأثر بالكثير من المتغيرات التي تقفز له من خارج الديني وتمتزج معه وتصبح ربما أشد وطأاً منه في نفوسنا، ولذلك من المهم جدا دراسة أنماط التدين وعلاقتها بتشكيل الهوية، وتحولها إلى مرجعية نستند عليها في فهم الكثير من مجالات الحياة.

والمجتمع الجزائري يعرف العديد من أشكال التدين، التي تقع في منتصف الطريق بين الديني المحض وبين الدنيوي المحض، فتشكل انقطاعاً روحياً وزهداً وعشقا وشوقاً إلى الديني، بل تصل مرحلة التقمص والتماهي فيه، والانقطاع عن الدنيوي وملذاته، ونجدها من جهة أخرى تقر بتدين البسطاء وال دراويش وربما جعلت من الدنيوي الفلكلوري دينا ونمطا تعبديا، لا يفهمه إلا من بلغ أحوال الصوفية وتلك العوالم التي يسمون إليها، نتيجة فهم خاص للدين وللعبادة، فالصوفية بدأت كنخبة

¹ - كايوا، روجيه، (2016)، الإنسان والمقدس، ترجمة سمير ريشا، ط1، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، ص 38.

² - هابرماس، يورغن وآخرون، (2013)، قوة الدين في المجال العام، ترجمة فلاح رحيم، ط1، العراق، مركز دراسات فلسفة الدين، ص 181.

دينية تسعى إلى الاتحاد الشخصي مع الله ثم فسدت في العصور الوسطى لتتحول إلى نوع من تقديس الأولياء¹، أي أن هناك تصوفا ربانيا لا غبار عليه، وهناك تصوف مولوي يميل لدروشة وإلى الفلكلور يمكن تحميله مسؤولية حياد التصوف عن الطريق وتحوله إلى مجرد ممارسة منحرفة للدين، لكن ما يهنا من خلال هذه الورقة هو التصوف في طابعه النقي، الذي يسعى لتخليص الروح البشرية من البشري، وأن ينتقل بالإنسان من حالة العادي إلى حالة الإنسان الديني، الذي ينقطع لعبادة الله، فيصبح الله معينا ومنيرا له في كل تفاصيل حياته، خاصة أن أغلب الطرق الصوفية ينحدر مشايخها من عائلات شريفة، إذ يعرف أحد الأنثروبولوجيين الصوفية بأنهم الأشخاص الذين يتدفق في دمهم المدون في سجل أنسابهم بركة النبي محمد-صلى الله عليه وسلم².

هذه الطبيعة المقدسة للتصوف من منطلق كونه أحد تجليات التدين في المجتمع الجزائري تدفعنا إلى طرح السؤال التالي: كيف تفهم الطريقة العلوية التصوف كمرجعية دينية في المجتمع الجزائري؟

إشكالية البحث والأسئلة الفرعية:

ما الديني وما علاقته بالزاوية كمؤسسة دينية؟

كيف تفهم مخيلة الفرد الجزائري الزاوية كمؤسسة دينية؟

ما هي الوظائف التي تقوم بها الزاوية العلوية في الجزائر كمؤسسة دينية ومرجعية هوياتية؟

المقاربة المنهجية للدراسة:

لقد اعتمدنا البنائية الوظيفية لأن الزاوية كفضاء ديني ومن خلال الوظائف المتعددة، تعتبر جزء من البناء العام للمجتمع، فهي تساهم من خلال أبعادها في الحفاظ على النسيج العام للمجتمع الجزائري.

1) عودة الإنسان الديني وسؤال المقدس والمقدس:

يقول «راتسنغر»: ما دام العقل لم يستطع القضاء على الوحي في الفضاء العلماني فليهتم الفيلسوف بالإيمان عوض الاستمرار في الحرب معه³، هذا إعلان صريح من الغرب بأن العقل فشل طيلة قرون في أن يزيع الدين عن المجال العام، فرغم كل محاولات التحديث والعلمنة، بقي الدين

¹ جرين، نايل، (2017)، الصوفية نشأتها وتاريخها، ترجمة صفية مختار، دط، مصر، مؤسسة هنداوي، ص23.

² جرين، نايل، مرجع سبق ذكره ص 25.

³ هابرماس، يورغن، راتسنغر، جوزيف، (2013)، جدلية العلمنة العقل والدين، ترجمة حميد لشهب، ط1، لبنان، جداول للنشر والترجمة والتوزيع، ص 32.

حيا ونابضا وموجودا في كل المجتمعات، ربما تنكس لفترة وتم إبعاده قهرا وعن طريق الإكراه، لكن لا يمكن أبدا القول بأن الدين انهزم واختفى، لا في الشرق ولا في الغرب، بل العلمنة اليوم تعيش هزات عنيفة وكشفت حقيقتها، بكونها مجرد استبداد فكري، ومصادرة همجية لحق الإنسان في أن يكون له رب، وهي تطرد كل من يتمسك بالدين خارج مجال الإنسانية، بطريقة فظة غليظة، وفيها تنكر لفكرة التسامح التي تتغنى بها، فالليبرالية تسلبنا إنسانيتنا في حالة لم ننقق معها في بعض آرائها واجتهاداتها الفكرية والفلسفية¹ وهي اجتهادات تصر على أن يكون الإنسان بلا دين وبلا مرجعية، وأن يتخذ من العقل ربا جديدا وصنما، حتى وإن أفسد عليه حياته الوجدانية والروحية، رغم أن الإنسان لا يفهم الحياة دون الله حتى ولو كان مجرد فكرة كما هو الحال في الغرب، بينما الله في مجتمعاتنا الإسلامية هو مركز الحياة الذي لا حياة بدونه، كما أن للدين وظيفة أخرى وهي ربطنا بالمضي السحيق والقديم الذي لا يبلى، فالتعاليم الدينية لا تخضع لفكرة القديم والجديد، فهي حية ومتجددة بذاتها، وذلك نظير طبيعتها المتصلة بالمصدر المتسامي وهو الله، خاصة في الثقافة الإسلامية، حيث أن التمسك بالدين يعيدنا إلى الماضي الينبوعي ويشكل أفضل وقاية لنا، ضد تدهور الزمن المعاش والأساس أيضا لفعل الإنسان في العالم².

وهنا تتجلى فكرة أساسية حول الفرق بين الإنسان الديني الذي لا يزال يحافظ على كيانه ووجوده في المجتمعات الشرقية، وبين الإنسان اللاديني الذي هيمن على الغرب لكنه تعب وأرهق من عقلانية الغرب الفجة، التي ظهرت كحركة تنويرية تريد عقلنة الدين بربطه بأصوله، ثم تحولت إلى حركة معادية للدين بل ناقمة على كل ما هو رباني، وهذا ما دفع بالمجتمعات الغربية إلى أن تعيد النظر في تجربتها التنويرية، وهي اليوم تريد أن تسترجع حقها في التدين وحقها في التواصل مع الله، دون أن تشعر بعقدة التخلف والرجعية، فالتأويل العبثي العلماني يطالب بإلغاء عقائد التوحيد والبعث والجزاء حتى ولو كانت متجذرة في الفكر الإنساني³ لكن اليوم لا أحد يقبل هذا الإلغاء ولا أحد يقر به، إنها صحوة ما بعد الحداثة، وحنين الإنسان إلى جذوره وإلى ثقافته الخاصة التي لا يمكنها التساوي داخل الديني، فلا يمكن لأي مجموعة بشرية أن تحافظ على خصوصيتها وأن تنتج هوية متميزة ومختلفة دون أن تتحصن في صدفية الدين، أو صدفية التدين، الذي يعطينا شرعية الوجود، ويعبر عن جوهرنا الخاص، ويعطي ثقافتنا نكهتها المميزة، فكل ثقافة أيا كانت إنما تضرب جذورها في

¹ البريدي، عبد الله، (2008)، السلفية والليبرالية اغتيال الإبداع في ثقافتنا العربية، ط1، المغرب الأقصى، المركز الثقافي العربي، ص75.

² زين الدين، احمد، (2018)، الديني والدنيوي قراءة في فكر مرسيا الياد، ط1، لبنان، بيسان للنشر والتوزيع، ص53.

³ عمارة، محمد، (2004)، مقالات الغلو الديني واللا ديني، ط1، مصر، مكتبة الشروق الدولية، ص84.

تجارب دينية ومعتقدات دينية¹ فحتى العلمانية الغربية تتماشى في منطلقتها الفكرية مع فكرة الله في الثقافة المسيحية، وثنائية اللاهوت والناسوت؟؟، وتجلي الله في صورة إنسان، ونزوله إلى الأرض، ربما هذه الفكرة هي التي مهدت لإمكانية العلمنة، حيث يمكن للإنسان الذي يحتوي على أصل إلهي أن ينوب عن الله نيابة كاملة في تدبير شؤون، وهنا نكتشف أن العلمنة هي تدين خاصة يقدم الجانب الإنساني في الألوهية على الجانب الإلهي فيها.

بينما بقي الشرق محتفظا بالمسافة التي يجب أن لا ننتهك بين الديني والإلهي وبين الدنيوي والبشري، فلا يمكن للإلهي أن ينحدر إلى البشري ولا يمكن للبشري أن يسمو إلى الإلهي، بل كل ما في وسع الإنسان هو أن يكون إنسانا دينيا خاضا للسلطة الله وتعاليه ووصاياه، يعيش وفقها ويتحرك من خلالها، فهي سبيله الوحيد لأن يكون مؤمنا من الدرجة الأولى، فالإنسان الديني لا يستطيع أن يحيى إلا في مكان مشبع بالقداسة² حيث يغمر الدين كل تفاصيل الحياة بل لا تكاد تجد نطقه واحد من هذا الكون الفسيح وإلا تتجلى فيها عظمة الله، ويحضر فيها الديني ويلقي ضلاله على كل شيء، وهذا ما نجده في الثقافة الإسلامية، حيث ليس هناك حد فاصل بين الديني والدنيوي، فكل شيء يمكن أن يتقدس إذا كان خالصا لوجه الله، وكل شيء يمكن أن يفقد قداسه إذا خالطته رغبة مادية لا تبتغي الأجر والثواب، إن فلسفة الدين والتدين عند المسلمين تختلف تماما عن نظيرتها الغربية، حتى وإن كان المسلمون فرق ومذاهب وطوائف، لكن يبقى كل هذه الاختلاف واقعا داخل حيز الدين الذي لا إمكانية لفصله عن الدنيوي، فالإنسان المسلم هو إنسان يحترم الماضي ويقدر كل ما حدث فيه، خاصة الجانب الديني، بل إن الكثير من الموروث الديني يتحكم اليوم في حياتنا ويساهم في تنظيمها وترتيبها فالإرث الديني يترك في القيم المعاصرة بصمته المميزة والطويلة الأمد³ أي أن كذبة انحصار الديني لا أساس لها خاصة في مجتمعاتنا الإسلامية حيث لا يزال سؤال القداسة والدناسة مطروحا بإلحاح في ثقافتنا الشعبية، المستمدة من خلفية دينية إسلامية، إضافة إلى نكهات ضاربة في الزمن، فمن خصائص الهوية إنها تتكيف لكن لا تتبدد ولا تتمحي على الإطلاق، فاعتناق دين ما لا يعني التخلص من الديانات السابقة، بل ستبقى حاضرة في ممارستنا اليومية لأنها تشكل

¹ - زين الدين، احمد، مرجع سبق ذكره، ص 06.

² - إلياد، مرسيا، (2009)، المقدس والعادي، ترجمة عادل العوا، ط1، لبنان، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ص 65.

³ - نوريس، بيبا، انغلهارت، رونالد، (2018)، مقدسات وعلماني الدين والسياسات في العالم، ترجمة وجيه قانصو واحمد مغربي، ط1، قطر، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ص 211.

مضاعفات خطيرة وعميقة في الثقافة لا يمكن التخلص منها، بل هناك عملية دمج وتأليف وتوليف لا تكاد تنتضب أو تنتهي¹.

ثم إن الدين كظاهرة ميتافيزيقية، عرفت المجتمعات البشرية منذ القديم، فهو النسق الأعلى والأساسي لتشكل الثقافة وتجانسها، وهو ظاهرة مركبة من عدة أبعاد في الحياة الإنسانية، فهو يعبر عن الحاجات الاجتماعية والنفسية، والغيبية الروحية، لذلك سوف نحاول من خلال هذه الورقة البحثية تتبع تجليات الدين أو التدين داخل المجتمع الجزائري، وكيف يضبط الإنسان الديني ساعته اليومية أو الكونية على ثنائية المقدس والمدنس، فالثقافة المحلية منصهرة في خلفية دينية تشير إلى أصالة التجربة الدينية في المجتمع الجزائري، حيث كل شيء إما أن يشير إلى الخير وإما إلى الشر، فالإنسان الديني يقع بين هذين الحدين، وحركاته تقدم النموذج المثالي الذي تحدده الآلهة والجدود الأسطوريين² هو نموذج يفصل بوضوح بين الممارسات المقدسة التي يمكن أن ترتقي بالإنسان، والممارسات العادية التي يمكن أن تهوي به، ولكل نمط تدين فلسفته الخاصة في صناعة واختراع المقدسات، وإلحاقها بالدين الأساس، وهنا تتجلى أهمية التدين، ونتأكد من حقيقة تعدد نماذج الإنسان الديني، حيث تشترك هذه النماذج في البحث عن القداسة، لكنها تختلف في الأشياء والأدوات المقدسة، إذ أن لكل مقدس أدوات وعباداته، وكائناته المقدسة، الملوك والكهنة، الأمكنة والأزمنة³.

ولعل من أبرز المفاجئات التي حملتها نهايات القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين خاصة بالنسبة للبعض من المفكرين والباحثين في أوروبا الغربية منها والشرقية على حد سواء وكذلك العالم العربي والإسلامي، وهذا ما يسميه البعض منهم "بالعودة المفاجئة للدين" خاصة والمقدس عامة في مجتمعات القارة العجوز، وتصاعد الاتجاه نحو الدين لا سيما لدى الشباب وفي مقدمة شعوب العالم التي استفاق فيها الدين، نجد العالم العربي والإسلامي، والمجتمع الجزائري، الذي كانت فيه عودة الديني من أحد أهم تجليات الصحوة الدينية، حيث ظهرت أنماط جديدة من التدين، وفي نفس الوقت استفاق التدين التقليدي ليدافع عن هويته وأصالته، إذ أصبح دوره أكثر وضوحا بعد المأساة الأمنية التي عرفت البلاد، حيث شبه الباحث خالد محمد، الإسلام التقليدي أو الشعبي في زمن

¹ - الياد، مرسيا، مرجع سبق ذكره، ص 190.

² - الياد، مرسيا، مرجع نفسه، ص 119.

³ - كايوا، روجيه، مرجع سبق ذكره، ص 37.

الأزمة الأمنية، برجال المطافئ الذين يتم استدعاؤهم عندما يشب حريق ما¹ فالظاهرة الدينية تلعب أدوارا اجتماعية مختلفة بحسب سياق تطور النوع الإنساني، ولذلك فإن الدور الذي تلعبه الظاهرة الدينية عند نشأتها في المجتمعات الإنسانية الأولى، يختلف عن الدور الذي تلعبه هذه الظاهرة الآن، لأن الدين يعتبر من أهم المؤثرات في كافة الأنساق الاجتماعية، على اعتبار أنه النسق الفعال والأساسي في تشكل الثقافة وتجانسها، فالحركات الإسلامية التي قامت على أنقاض القومية العربية التقدمية لم تكتفي بترميم المعتقدات الدينية بل حاولت إقامة نمط حياة متميز² سواء التقليدية منها أو الحديثة أو المتخيلة.

إنه التمايز الذي يفرضه شكل التدين وطبيعته، وكيف يفهم العلاقة بالمقدس، وما يحيط به من محاذير دينية، وحرمة، تعتبر أظهر بقاع الأرض، بل تلك البقعة من الأرض هي التي يحدث فيها التواصل بين السماء والأرض، ويتجلى الإلهي في أحد صوره، لجموع المؤمنين، وهنا تتجلى أهمية المقدس، الذي يقوم على بنيتين أساسيتين، أحدهما معنوية وهي الزمن المقدس، وهو أصلي وضارب في القدم، متجدد لا يفنى ولا يبلى، يعود في كل مناسبة بنفس الشكل الذي ظهر به أول مرة، انه الزمن الأصلي الذي الزمن الأصل يجهد الإنسان ليعيده في الحاضر على نحو دوري³ ويعتبر من أهم المناسبات التي تجمع إتباع التدين الواحد، وتجعلهم يشعرون بالغبطة والحبور، فهو الزمن المؤسس للحظة التي أصبحت علامة فارقة في حياة الجماعة، كما أن كل زمن مقدس مرتبط بمكان مقدس، فالزمن المقدس يأتي ليؤكد على خصوصية المكان وطهارته، وانه لجماعة واحدة دون غيرها، فهو المكان الذي يكون مشحونا بالإيمان، انه الرحم، الذي يجب أن يحاط بالمحرمات، التي تحافظ على قدسيته، وتعلن تملك الجماعة له، لاه المكان الذي عملت فيه الإلهة أول مرة، أو تجلت فيه، وتركت شيء من بركتها فيه، فهو المكان المقدس الذي تنزل فيه الإلهة إلى الأرض رمزيا ويعلو فيه الإنسان إلى السماء رمزيا⁴ ولذلك لكل دين أماكنه المقدسة الرئيسة كدور العبادة، ومزارات الحج، وبعض الأماكن التي يتفق عليه عموم إتباع الديانة، لكن كلما تفرعنا في الدين وانتقلنا إلى التدين كلما ظهرت أماكن مقدسة خاصة بإتباع الفرق والمذاهب والطوائف، إنها تكتسب قداسته من خلال زمن قياسي

¹ - خالد، محمد، (1999)، التحولات الاجتماعية والممارسات الدينية (51 - 66) مجموعة من الباحثين، وقائع الملتقى الوطني: أي مستقبل للأنثروبولوجيا في الجزائر، تيميمون 22/23/24/ نوفمبر 1999، وهران، الجزائر منشورات الكراسك، ص 54.

² - غرانج، هوغلا، (2016)، نكران الثقافات، ترجمة سليمان الرياشي، ط1، قطر، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ص 86

³ - إلياد، مرسيا، مرجع سبق ذكره، ص 117.

⁴ - إلياد، مرسيا، مرجع نفسه، ص 64.

الفرقة أو المذهب، ولذلك نجد في الثقافة الصوفية العديد من مظاهر القداسة للأمكنة والأزمنة الخاصة بكل فرقة وبكل طريقة، حيث أن كل واقع ديني هو خبرة من نوع خاص ناجم عن لقاء الإنسان بالديني¹

2) الزاوية والتصوف في المتخيل الشعبي الإسلامي:

في عام 1969 أكد «بيتر بيرجر» في مؤلفه الحقيقة الاجتماعية للدين إن البشر يحتاجون إلى مظلة مقدسة كي تجعل الحياة ذات معنى، لأن غياب المعنى يعد تهديداً لحاجتنا إلى عالم متسق² وهذا ما تقوم به المؤسسات الدينية، سواء الرسمية منها أو تلك التقليدية والضاربة من حيث الوجود في عمق التاريخ، والمعبرة عن هوية المجتمع وانتمائه، حيث تعتبر الزاوية بصفة عامة جزء لا يتجزأ من ثقافة المجتمع، فلكل قبيلة أو عرش زاويته التي تشرف على حياته الروحية وتنظم شؤونه الدينية، من تعليم وتقاضي، فالمجتمع خاصة الريفي يعيش على حافة الحضارة وهو غير معترف بمنتجاتها سواء السياسة أو الاجتماعية، بل يعتمد على نوع من الاكتفاء الذاتي، الذي تشرف عليه وتديره مؤسسات دينية تقليدية، تعبر عن هوية كل منطقة وصلحائها وإشرافها، الذين يتنازل لهم المجتمع طوعية عن حق قيادة المجتمع وتسييره، مقابل أن يكون معنى لحياته، تتسجه مخيلته التي تسعى دائماً إلى ربطه بالماضي العتيق، حيث كل شيء مرتب ومنظم بحكمة الأجداد وعلمهم ومعرفتهم، ولذلك تعتبر الزاوية العلوية إحدى تجليات الطرق الصوفية في الجزائر وأحد المرجعيات الدينية في الغرب الجزائري، حيث ساهمت الزاوية منذ القدم في الحفاظ على هويته وطابعه الإسلامي، عن طريق التعليم الذي يقوم على تحفيظ القرآن، وأحكام الدين، وممارسة مهنة القضاء بين الناس، وبذلك فإن دور الزاوية الأصلي يختلف تمام عن التشوهات التي لحقت بها فالتصوف هو الانقطاع لعبادة الله من جهة، ومن جهة أخرى إرشاد الناس وتوويرهم دينياً، فالزاوية مؤسسة دينية تعليمية بالدرجة الأولى، ولها أيضاً جانب خيري واجتماعي، وهذا ما يمثله التصوف الحق، إذ يفرق الباحث ربيع محمد بين التصوف الحقيقي وما يحدث اليوم في الأضرحة من دجل وشعوذة³ واليوم نجد الكثير من الزوايا تعمل من خلال حركة إصلاحية على إعادة ربط التصوف في المجتمع الجزائري بهدفه الحقيقي والأصيل وهو الدفاع عن هوية المجتمع وتقويم السلوك، والتأكيد على ثنائية الزهد والعبادة والعلم، وهو أيضاً يقف على أرضية صلبة من التسامح والوسطية، فهو مطبوع على نحو

¹ - زين الدين، أحمد، الديني والديني مرجع سبق ذكره، ص 06.

² - المصري، سعيد، (2019)، تراث الاستعلاء بين الفلكلور والمجال الديني، ط1، مصر، مؤسسة بتانة، ص162.

³ - ربيع، محمد، (2015)، الانثروبولوجيا الدينية ظاهرة التصوف الإسلامي: نشأته ومصادره (01 - 14)، مجلة

العلوم الانسانية والاجتماعية، الجزائر، العدد 18، ص 02.

مخصوص بتسامح ديني قوي ومن ثمة هو يتحرك على مسافة بعيدة من كل مظاهر التعصب¹ وهذا ما جعل المجتمع يقبل عليه ويحترمه كأحد تجليات الديني في المجتمع الجزائري

وعليه سوف نحاول تسليط الضوء على إحدى المؤسسات الدينية في المجتمع الجزائري، وهي الزاوية العلاوية، كبنية تقليدية من خلال الوظائف الاجتماعية، التي تقوم بها، وارتباطها بفكرة القداسة في المجتمع الجزائري، "فالدين عبر التطور التاريخي أنتج مؤسسات خاصة به، تطورت ضمن سيروية سوسيو تاريخية رافقت مختلف التحولات والتغيرات التي عرفت المجتمعات الإنسانية قديما وحديثا، ومنها الجزائر التي عرفت مؤسسات ثقافية متنوعة تؤدي أدورا فعالة داخل المجتمع ومن بين هذه المؤسسات نجد بعضها ذات طبيعة تعليمية (المساجد والكتاتيب والزوايا)، هذه الأخيرة كما عرفها ابن مرزوق الخطيب "هي المواضيع المعدة لإرفاق الموردين والمحتاجين من القاصدين² إن هذا التعريف يحيلنا إلى أن الزاوية هي قبة للباحثين عن المعاني العميقة للدين والتي توفرها الزاوية في شكل أورد وأذكار خاصة يشرف عليها ثلة من السالكين ممن بلغوا مراحل متقدمة في المنظومة التراتبية الصوفية، حيث يمتلكون المعرفة التي لا يمتلكها غيرهم ولذلك يرى «روجي كايوا» أن الإنسان الذين يمتلك إيمانا هو الذي هو الذي يعرف كيف يخضع الآخرين ويستطيع ذلك³.

ولذلك عرفت الزوايا انتشارا عبر كامل التراب الجزائري، خاصة في الغرب والوسط. ففي الناحية الغربية يرجع الدكتور «أبو قاسم سعد الله» "سبب كثرتها إلى كثرة الزوايا المرابطين بالمغرب الأقصى وإلى الحاج الرحالة القادمين من المغرب الأقصى، الذين كانوا يعبرون الجزائر، ويغذون فكرة المرابطين وينشرون مبادئ رواياتهم وشيوخهم⁴، زد على ذلك الدور الاجتماعي المتمثل في حل النزاعات والخلافات بين الأشخاص، والذي يهدف إلى تحقيق التماسك بين البنى الاجتماعية بكل أبعادها التربوية، والاقتصادية، والسياسية، "فمنذ العهد العثماني عملت القبائل على تأسيس الزوايا والاحتكام إليها، وفي معظم الحالات كان رجال الدين هم من يقومون بتأسيس الزاوية، بهدف تملك الأرض ورفض تدخل الأجانب في تسييرها، خاصة أن امتلاك أرض مجهولة يكون بممارسة الشعائر فيها⁵ كما أن الزوايا ارتبطت في البدايات الأولى بمدارس التعليم الإسلامي الحر بقيادة كبار الشيوخ

¹ - المسيكني، فتحي، (2018)، الإيمان الحر أو ما بعد الملة مباحث في فلسفة الدين، ط1، المغرب الأقصى، مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، ص 18

² - ابن مرزوق، الخطيب، (1981)، المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، ط1، الجزائر، المؤسسة الوطنية للنشر، ص 10.

³ - روجي كايوا، مرجع سبق ذكره، ص 03.

⁴ - مؤيد، صالح، (2002)، علم الاجتماع: الموضوع والمنهج، ط1، عمان الاردن، دار المجذلاوي للنشر، ص16.

⁵ - إلياد، ميرسا، مرجع سبق ذكره، ص 70.

الذين تحولوا من شيوخ الزوايا إلى قادة عسكريين، فقد كانت تمثل عملا خيرا دينيا لنشر الثقافة الإسلامية بين أفراد المجتمع الإسلامي¹، وبهذا المعنى يقول جرنس: "تؤهل لوجود حياة دينية واجتماعية متكاملة فقد كانت بالإضافة إلى وظيفتها الدينية، تساهم في تحقيق التكامل الاجتماعي.

فالدين هو عبارة عن مؤسسة اجتماعية تأتي من أجل الإبقاء على التكامل الاجتماعي، وهذا ما جعل الجيش الفرنسي يحاربها نظرا للوظيفة الكاملة التي كانت تؤديها، "فقد كانت في طليعة الجيوش التي وقفت في وجه الحملات الاسبانية والبرتغالية، كما خططت وقادت كل الثورات الشعبية التي قامت ضد الاحتلال الفرنسي في كامل أرجاء الوطن"⁽²⁾ وهنا نجد أن دور الزاوية سواء العلوية أو غيرها لم يبقى محصورا في الجانب الديني والخير، بل إن لها دور سياسي مهم تقوم به، ولديها قدرة على تحفيز الأفراد على الجهاد والتضحية من أجل القيم العليا، فالزاوية ليست مجرد جانب فلكلوري محض أو انقطاع روعي تعبدي فارغ المعنى، إنها أيضا مؤسسة تحمل هموم المجتمع وتطلعاته، وتساهم عن طريق تنشئتها الخاصة في نقل القيم الإسلامية خاصة مفهوم الجهاد والتضحية في سبيل الله، لا سيما الزوايا التي حافظت على كينونتها واستطاعت إن تأني بنفسها عن مظاهر الدروشة وتجمع البهاليل وإقامة المواسم والولائم، حيث أن للزاوية دور سياسي منقطع النظير في المجتمعات المغاربية بصفة عامة.

إذ أن الصوفيين في كثير من الأحيان ليسوا روحانيين زاهدين بل هم أطراف سياسية فاعلة³ وبذلك فإن ممارسة السياسة يعني وجود بعد هوياتي ومرجعي يتقاطع مع البعد الوطني والانتماء الروحي، فالانتماء إلى كيان ما يعني الانفصال عن باقي الكيانات، وهذا هو الدور الجوهرى الذي قامت به الزاوية في الحقبة الاستعمارية، حيث أسست لفكرة الأنا والآخر على أساس ديني، وحافظت على الهوية المحلية مقارنة بالهوية الوافدة المتمثل في المستعمر الفرنسي حيث يقول «الياس نوربرت»: «ليس هناك هوية للانا دون هوية لنحن»⁴ وهذا ما وظفته الزاوية في الحفاظ على الهوية الوطنية وإجبار الأفراد على تبني النمط الذي يتبناه المجتمع العام، حيث أن ترك الأفراد بدون رقابة سيؤدي بهم إلى الانسلاخ عن المجتمع وتبني أنماط سلوكية مختلفة ومغايرة، وربما الذوبان في الآخر، ولذلك تعتبر التربية الروحية من أهم مقومات الحفاظ على الشخصية الوطنية وحمايتها من حالة الميوعة السائلة التي تسببت فيها العولمة، واليوم نجد الزاوية ومن خلال الحفاظ على نسقها

¹ - سعد الله، أبو القاسم، (1998)، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، الجزائر، دار الغرب للنشر، ص 16

² - عبد المنعم، منال، (1990)، التصوف في مصر والمغرب، ط1، منشأة المعارف للنشر الاسكندرية، ص127

³ - جرين، نايل، مرجع سبق ذكره، ص 25.

⁴ - دوبار، كلود، (2008)، أزمة الهويات تفسير تحول، ترجمة رندة بعث، دط، دار المكتبات الشرقية، ص 41.

القيمي والمعياري تسعى إلى إعادة إنتاج الشخصية الوطنية المتشعبة بالقيم الوطنية، والانتماء الوطني، فالتصوف لا يشكل نمطا من أنماط التدين فحسب في المجتمع الجزائري، بل هو يشكل مرجعية ثقافية وسياسة للمجتمع.¹

فالزاوية اليوم هي أحد رموز الديني، وهي أحد تمثيلات الماضي الإسلامي، لدى المجتمع، نظير الدور الذي لعبته خاصة الجانب التعليمي والقانوني التشريعي، والاجتماعي الاخلاقي، حيث أن حفاظها على نشاطها التوعوي والتعليمي، يهدف إلى إبقاء التواصل ممكنا ومرتبطا بالماضي السحيق، وبالمؤسسات الدينية، التي نشأت في يوم من الأيام حاربت كل مظاهر التفسخ والانحلال، خاصة أن الجزائر عرفت مرحلة طويلة من الاستعمار الفرنسي، الذي عمل على طمس معالم الهوية الوطنية، وقد سبقه الوجود العثماني، الذي نشترك معه في الدين، لكن لا نشترك معه في الثقافة والهوية، وهنا كانت الزاوية ومن خلال الطقوس التي تشرف عليها والشعائر، تحاول ربط المجتمع بهويته الخاصة، التي تختلف عن الغير، وعن الآخر في نفس الوقت، وهي التي تحفظ الشخصية الوطنية.

واليوم نجد نفس الدور تقوم به الزاوية من خلال المزوجة بين الجانب الحداثي التتموي، والجانب الروحي التعبدية، حيث أصبحت الزاوية مؤسسة اقتصادية واجتماعية بل إنها تسعى إلى حماية البيئة وتدشين برامج ذات طابع عالمي، تهدف إلى خلق تنمية مستدامة عن طريق جمعية جنة عارف، التي تقدم تربية روحية وفي نفس الوقت قيم إنسانية ومتصالحة مع البيئة² هذه الوظيفة التي تعتبر حضارية ومعبرة عن قدرة الإسلام على التكيف، والإسلام ليس ضد الحضارة والتنمية لكنه ضد الانسلاخ والابتعاد عن القيم الروحية، التي تربط الانسان بخالقه، ولذلك تعمل الزاوية من خلال المتخيل الإسلامي على ربط المجتمع بقيمه الضاربة في القديم، وفي نفس الوقت تربطه بالقيم الحديثة التي لا تتصادم مع روح الإسلام، عن طريق إحياء الثقافة ذات البعد الرمزي.

¹ قابو، امينة، كرايس، الجيلالي،(2020)، الشباب الجزائري والعمل التطوعي المكانة الاجتماعية والهوية دراسة ميدانية جمعية جنة عارف العلاوية انموذجا (148 - 163) مجلة مقاربات، المملكة المغربية، العدد 39، المجلد العشرون، ص 156.

² للمزيد انظر: قابو، امينة، كرايس، الجيلالي،(2020)، الشباب الجزائري والعمل التطوعي المكانة الاجتماعية والهوية دراسة ميدانية جمعية جنة عارف العلاوية انموذجا (148 - 163) مجلة مقاربات، المملكة المغربية، العدد 39، المجلد العشرون

فالخيال الرمزي يحضر المعنى عندما لا يعود المدلول أبدا قابلا للحضور وعندما لا يستطيع الدالول الانتماء إلى أي معنى¹ ولذلك فإن الخيال وإعادة إحياء الماضي وتذكره والانغماس فيه، سيعطي معنى لهوياتنا، ويجعلنا نفتخر بها ونعتز بها في وجه قيم تريد فرض نفسها كقيم حضارية مطلقة، وفي نفس الوقت تنفي التحضر عن غيرها، ولذلك وجب مقاومتها عن طريق عملية الإحياء والالتفات إلى الماضي، والعودة إلى الجماعة الأصلية، التي تحتم فكرة الآخر الغريب، الخصم، والعدو لجماعتي، لمجموعتي الثقافية الرمزية والتخيلية² فالتخيل الإسلامي الذي تعتمد عليه الزاوية في عملية التنشئة يهدف إلى وضع الحدود والفواصل بين الأنا والآخر، ليس بهدف العداء معه والتصادم، بل من أجل الحفاظ على الهوية المحلية.

من خلال هذا القول أن الزاوية بصفة عامة كمؤسسة صوفية وروحية، والزاوية العلاوية خاصة، هي مؤسسة دينية لها حضورها التاريخي في وجدان المجتمع الجزائري، وهي مؤسسة مرجعية ذات طابع هوياتي، حيث أنها تقوم بمجموعة من الوظائف بهدف حماية الشخصية الوطنية وتعزيز الانتماء المحلي، في ظل مجتمع عالمي أصبح يعرف عودة قوية للتحيزات الدينية، إذ أصبح الجميع يبحث ويفتش في تراثه عن هويته المستمدة من انتماؤه الديني، فالانتماء الديني أصبح مصدر المغايرة، والممايزة الوحيد، في عصر العولمة المفرطة والتي تسعى إلى نمذجة المجتمعات في قالب واحد، ليس له هوية سوى هوية اللا انتماء وليس له شخصية سوى ما تقرره مخابر البحث العالمي والتي تسعى إلى خلق نموذج المواطن العالمي الذي ينتمي إلى اللا انتماء ويقع خارج الزمان ويوجد في اللامكان.

3) الزاوية العلاوية بين الرسالة الروحية والوظيفة السوسيوثقافية:

تبدو الأديان اليوم هي التي تضطلع بإعادة ترتيب الهويات³ وصيانتها من التقهقر والانحيار، وإعادة بناء إنسان جديد له واجهتان، فمن جهة هو منتمي إلى دينه وغير مستعد للتنازل عنه، لأنه هو الصدفية القوية والوحيدة التي ستحميه في عالم السيولة على حد تعبير «زيجمونت باومن»، أو من عالم المخاطر على حد تعبير «أولريش بيك»، وله أيضا واجهة أخرى تطل على الحضارة والشغف بها والإبداع فيها، حيث لا مكان للإنسان النائي المنقطع عن التكنولوجيا في هذا العالم،

¹ - دوان، جليب، (1991)، الخيال الرمزي، ترجمة على المصري، ط1، لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص08.

² - دويار، كلود، مرجعه سبق ذكره، ص 297.

³ - رواء، أوليفيه، (2012)، الجهل المقدس زمن دين بلا ثقافة، ترجمة صالح الاشمر، ط1، لبنان، دار الساقى، ص20.

والأديان تريد إنسانا متمسكا بإيمانه، وفي نفس الوقت يعمل في وكالة ناسا، فلا صدام بين العقل والنقل، خاصة في الثقافة الإسلامية، رغم تعدد طرقها ومذاهبها وفرقها، إلا أنها تتفق على أن العقل يخدم النقل وأن النقل يرحب بالعقل.

وتعتبر الزوايا والطرق الصوفية في الجزائر ظاهرة اجتماعية ودينية ومكانا يجمع الصوفيين، وقد تجلت "كفضاء تعبدي متعدد الوظائف والأدوار، فمنها الدور التعليمي المتمثل في نشر الإسلام واللغة العربية، فقد اعتبرت مدارس ابتدائية وثانوية ومعاهد علمية في آن واحد⁽¹⁾ فهي تمثل قوة الرباط الروحي وجوهر الثقافة الشعبية، أما الدور الاجتماعي فيتمثل في تدخل الزاوية في مسائل الطلاق، الزواج، والبيع والشراء، وحل مسائل الميراث، كما تعتبر دارا مجانية للضيافة. فالزاوية العلوية كبنية تمثل الموروث الثقافي، والروحي، الذي لا يزال يغذي المخيال الاجتماعي وعلى هذا الأساس فالزاوية العلوية اليوم تقوم بأدوار متعددة وفاعلة، من خلال نشاطات ثقافية والإنسانية التي تعمل من خلالها على ترسيخ النزعة الجماعية، عن طريق الحرص على إحياء الاحتفالات والمناسبات الدينية كتجسيد للفعل الجمعي المبني على الروحانية، ومؤشرات ذلك آداب الجمع وشروطه، كيفية الجلوس، والسماع، وطقس والخلو، فهي تركز على مريديها كنماذج في المجتمع لذلك تسعى "الدولة إلى الحفاظ على تراث الطريقة العلوية وتعزيز دورها في تعليم الشباب. وقد بدأت المهرجانات بانطلاق "قافلة الأمل من الجزائر وهي قافلة تهدف من وراؤها إلى عرض الأنشطة الفنية، والثقافية، لقيادات الطرق الصوفية وتوفير بيئة حوار خصبة مع غيرها من الزوايا⁽²⁾. أو حتى من خارج التيار الصوفي، فما يميز التصوف هو قدرته على الإنفتاح على مختلف التصورات والتوجهات داخل الإسلام وخارجه.

ويعود هذا بطبيعة الحال إلى ثقافة الشيخ ومكانته عند المريدين، رغم صغر سنه فهو يمثل رمز السلطة والمقدس في الوقت نفسه، كما لها وظيفة ثقافية وهذا ما يميزها، حيث يقول شيخ الطريقة "الزاوية تعالج مشاكل العصر لأن لديها فرع يسمى جنة العارف يهتم بأمور البيئة ومن هنا تظهر الوظيفة الكامنة للزاوية في توعية الشعب حول موضوع حب الوطن، والمساهمة في استقراره، فنجد شيوخها يحرصون على الانخراط في المجتمع، وإنتاج خطاب عصري يواكب روح العصر ومتطلبات الدولة، ولكنها في جانب آخر تؤطر هذا الخطاب بمرجعيتها الدينية الإسلامية حتى لا تذوب في ثقافة الآخر"، فالزاوية اليوم مطالبة بإيجاد توازن أو حل لتلك المعادلة التي ظلت تتراوح بين الأصالة (تراث الأمة الإسلامية) مقابل إنتاجيات العصر ومستجدات الحداثة، فقد أسست جمعية جنة العارف

¹ - سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، مرجع سابق ص 17

² - سعد الله، أبو القاسم، ج2، مرجع سابق ص20.

كدعامة للمركز المتوسطي للتنمية المستدامة يوافق عليها بشكل مباشر رئيس الدولة الجزائرية¹، ومن هذا المنطلق يتضح الدعم السياسي لهذه المؤسسة الدينية بمختلف الطرق خاصة وسائل الإعلام، بسبب دورها الفعال في المجتمع من أجل تنمية روح المواطنة التي تجمع بين الحق والواجب، ولا يكون ذلك إلا بمساندة السلطات المحلية، والوطنية من منظور التنمية المستدامة.

وحسب مطالب الدولة كما تعتبر فضاء لبناء العلاقات الاجتماعية مع شخصيات محلية وعالمية وهنا تبرز مؤشرات الإنتاج السياسي للزاوية، من خلال الأفعال الاجتماعية التي تقام داخل هذا الفضاء الديني "كما يتم تمويلها عن طريق إعانات الدولة والجماعات المحلية، فقد خصصت الدولة الصندوق الوطني للزوايا للتمويل، وهنا نلاحظ دعم النظام السياسي لها من أجل تمرير إيديولوجية الدولة ومشاريعها، أما الدور السياسي فقد كان لها بعد تاريخي، فالزاوية في العهد العثماني كانت كأداة تنظيمية قبلية جد متطورة، تقوم بدور ديني مقدس وسياسي دنيوي كنتيجة لنفوذها الاجتماعي، فالطرق الصوفية لها تأثير كبير على الحاكمين والمحكومين لذلك يتجنب الحكام الاصطدام بهما، لأنهم يتخوفون من أن تسلط عليهم الطبقة العامة²، فالشيوخ في المخيال الاجتماعي هم ممثلين للقداسة المستمدة من الدين لا ينبغي معارضتهم والسلطة توظف الحركة الصوفية، في إدارة الشؤون العامة، وتوظيف الدين في السياسة إنما يلجأ إليه العقل السياسي للجماعة عندما لا يكون من مصلحتها التعبير عن قضيتها الاجتماعية والاقتصادية تعبيرا صريحا ومطابقا، لأن ذلك يفضح الطابع المادي الاستغلالي لتلك القضية، أو عندما لا تستطيع تلك الجماعة ذلك بسبب وعيها بنتيجة عدم بلوغها مستوى من التطور يجعلها قادرة على طرح قضيتها الاجتماعية والاقتصادية طرحا مكشوفاً.⁽³⁾

فالمواقف السياسية لم تكن بعيدة عن المؤسسات الدينية الروحية في بلد يكون فيه كل شيء مسياسا، أما أثناء المرحلة الاستعمارية، فقد كانت تمثل قاعدة دينية ضربت جذورها في أعماق المجتمع الجزائري، من أجل المحافظة على الهوية الوطنية والإسلام. نظرا لمكانة "الزاوية المرموقة والاحترام الذي كان يحظى به أصحابها، فإن أي نداء للجهاد كان يلقي صدى لدى السكان لمحاربة هذا العدو، الذي جاءهم باسم الكنيسة لمحاربة دينهم ولغتهم، ولعل التركيز على الناحية الروحية كان أقوى من الناحية المادية، إلا أنه ما لبث أن عرفت الفترة المولية انقساماً بين الزوايا، فمنها من بقي وفيا لمبادئ

¹ - بوبكير، أمل، (2012)، التصوف والحدائث في دول المغرب العربي، ط1، الجزائر، المسبار مركز الدراسات والبحوث، ص16.

² - بن تونس، خالد، (2009)، التصوف الإرث المشترك، ط1، زكي بوزيد للنشر، ص 303.

³ - لانغ، مارتين، (2014)، ما الصوفية، ط1، دمشق، سوريا، دار الفردق للنشر، ص 20

الجهاد، ومنها من سعى لتحقيق أغراض دنيوية نتيجة إغراءات قدمتها السلطات الفرنسية، التي كانت تحكم بقبضة من حديد، على كل نشاط سياسي يمكن أن يقوم به أي فرد وعلى كل حركة جهاد يمكن أن تقوم بها طريقة من الطرق الدينية⁽¹⁾.

وعليه فإن زوايا أخرى تحولت إلى مراكز كانت في كثير من الأحيان السبب في تشجيع الأفراد على الثورة وجمع الأموال باسم الدين، والدفاع عن أرض الإسلام حتى كتب أرست مرسية عام 1869: "إن الطرق الصوفية عدوة لفرنسا بالميلاد، أما مرحلة ما بعد الاستقلال "عرفت الزوايا في الجزائر خمولا وتغيبا لفترة زمنية وذلك راجع إلى التقلبات السياسية التي عرفت البلاد منذ 1965م، حيث اتخذت عدة أشكال مثل الزاوية العلوية والرحمانية اللتان كانتا ميدانا للتعليم الديني، وفضاء للممارسات الدينية للكثير من التابعين، لأن القيادة السياسية آنذاك، كانت توجه اهتمامها إلى بناء الدولة، فتغيرت صورة الزوايا بعد الاستقلال، وتكلفت الدولة بالتعليم في جميع أطواره بظهور المنظومة التربوية، وتأسيس المراكز الثقافية التي حلت محل الزوايا، خاصة في عهد الرئيس هواري بومدين، الذي عمل على تجميد نشاط الزوايا، لأن اهتمامه كان منصبا على بناء الدولة، وعلى المشروع التحديثي الذي طرحه للمجتمع، فنجد أن التأميم والهدم والإقامة الجبرية هي العناوين الرئيسية في قاموس تعامل النظام مع هذه المؤسسات الدينية، لأن الإيديولوجية الاشتراكية في تلك الفترة كانت "متعارضة مع التعليم في الزوايا.

ولكن في الفترة الممتدة من 1980 الى 1990 ظهرت فيها مجموعة من التيارات الإسلامية التي حاربتها واعتبرتها أنها بؤر للبدع والشرك، كما صرح شيوخ الزوايا بالتهديدات ومحاولة الاعتداء التي تعرضوا لها في ظل موجة العنف التي عاشتها الجزائر، فقد خلفت العشرية السوداء شرخا في البنية الاجتماعية والثقافية والدينية، وهذا ما أحدث خلا في بناء المجتمع، لم يستطع السياسيون احتواءه فلجئوا إلى محاربة التيار الأصولي (المتطرف). ولم تكن عودة الزوايا إلى الساحة السياسية وليدة تلك اللحظة من التاريخ، بل الإرهاصات الأولى كانت "بدايتها سنة 1983م. وفي شهر ماي 1991م انعقدت أول ندوة وطنية حول الزوايا وهي الفترة التي شهدت تصاعد للمد الإسلامي وظهور أزمة العشرية السوداء وإيجاد هيئة تهتم بالزوايا والطرق الصوفية والإسراع بإنشاء منصب مفتي الجمهورية وشرطت أن يكون مالكا ومتصوفا للحفاظ على مرجعية الأمة.⁽²⁾ كما عين على رأس

¹ - محمد عابد الجابري، (2004)، الدين والدولة وتطبيق الشريعة، ط2، بيروت، لبنان، مركز الدراسات الوحدة العربية للنشر. ص، 115.

² - حنفي، حسن، (1998)، في الثقافة السياسية أراء حول أزمة الفكر والممارسة في الوطن العربي، دط، دمشق، دار علاء الدين للنشر، ص78.

وزارة الشؤون الدينية أحد أبناء الزوايا، "وقد أدت هذه السياسة الجديدة إلى انتعاش الزوايا وإحياء العديد منها.

إن هذه الإستراتيجية تأتي لمواجهة التيارات الإسلامية القادمة من الشرق، ناهيك عن الزيارات المتكررة للرئيس إلى شيوخ الزوايا، بما فيها الزاوية العلوية لأخذ (البركة الانتخابية)،⁽¹⁾ فقد حاولت الزوايا من خلال دعم الرئيس السابق بوتفليقة أن تحافظ على الوضع السياسي، الذي أيد إعادة ظهورها مرة أخرى على الساحة، أما الوظيفة الكامنة فتظهر مباشرة في ما يوفره الخطاب الصوفي من قيم الطاعة والولاء والخضوع للشيخ، ودخول مؤسسات الزوايا كعنصر في البنية الدينية كان عاملا في إعطاء مكانة رمزية للشيخ عن طريق إعادة إنتاج تعاليم مؤسسيها ومرباطوها، بشكل حرفي، مما أدى إلى قراءة متكررة للتراث الإسلامي، مادام الهدف واحد ألا وهو توسيع مجال السيطرة الدينية والسياسية⁽²⁾. لقد استعمل الدين الشعبي المتمثل في المزارات والزوايا والطرقية لمحاربة الحركات الدينية، واستغل لتمرير العديد من الخطابات السياسية، فكل مشايخ الزوايا والقائمين على مثل هذه التظاهرات أصبحوا في شكل من التناغم العام مع السلطة المركزية، حيث يجدون نوعا من الفضاء السياسي المؤطر بالمقدس، لكسب المزيد من الدعم السياسي، لأنها منبر إعلامي رمزي واستراتيجي لتمرير الخطاب السياسي والإيديولوجي للسلطة وشرح البرامج المختلفة⁽³⁾

فتراهن الدولة على دعم هذه المؤسسات الدينية وتوظيفها أيديولوجيا من خلال تأمين الطرقات وتعبيدها سياسيا واجتماعيا، وتقديم التبرعات من الأعيان للسياسيين، ويتضح ذلك من خلال التنسيق بين أعضاء الزاوية والمسؤولين المحليين، فحسب عبد الله حمودي لقد كان "للزاوية والشرفاء والصالحين دور هام في بناء المجتمع والعملية السياسية ولو بطريقة غير مباشرة، بما يسمى بالأشكال التعاقدية الضمنية"⁽⁴⁾، ومن ثم نلاحظ توظيف الخطاب الديني لإضفاء الشرعية الدينية للسلطة الحاكمة، فالسلطة السياسية توظف الدين لإضفاء القداسة على سلطتها والقائمين عليها، لأنها تأخذ بعين الاعتبار أن الدين هو روح المجتمعات ومن يعرف أمور الدين يتغلغل إلى روح المجتمعات، وطالما أن الشيخ يمتلك هذه الميزة، تسعى الدولة إلى دعمه وتوظيفه لخدمة مصالحها بمختلف الطرق، من قبل مؤسسات الدولة، مثل وزارات الثقافة أو الشؤون الإسلامية.

¹ - بوبكير، أمل، مرجع سابق، ص 20.

² - حسن حنفي، في الثقافة السياسية، مرجع سابق، ص 15 .

³ - سالم، صلاح، (1991)، تجليات العقل السياسي ومستقبل النظام العربي، دط، القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر، 1991.

⁴ - صلاح سالم، المرجع نفسه، ص 268.

وتأتي مثل هذه الممارسات كتنظيم الفعاليات تحت رعاية رئيس الدولة مباشرة، كمؤشرا لتوجه الدولة في إعادة طرح الصوفية من جديد كجزء من الهوية⁽¹⁾. فالزاوية كمؤسسة تعتبر أداة وقناة لتمير الخطاب الأيديولوجي وتحقيق الولاء السياسي وتعزيز القنوات الفردية والجماعية، كما أن ظهور التصوف كحركة أو كمؤسسة كان له بعد سياسي كما ذكرنا سابقا، وأن أي ظهور أو غياب للزاوية اليوم مرتبط بموقف سياسي بالدرجة الأولى، "وأن المقدس هو أحد أبعاد الحقل السياسي، ويمكن أن يكون أداة للسلطة وضامنا لشرعيتها، وإحدى الوسائل المستخدمة في إطار المنافسات السياسية"⁽²⁾، ومن هنا يمكن أن نعتبر العودة الإعلامية للصوفية في الجزائر مقترنة بعودة الصوفية في العالم، وذلك كرد فعل على ما أفرزته العصرنة، المرتبطة بعودة الظاهرة الدينية (retour de religion) والتطور التكنولوجي ووسائل الاتصال الحديثة، مما جعل الإنسان يتجه نحو الفر دانية، والنزعة المادية.

وبعد "أحداث الحادي عشر من سبتمبر، حيث عمدوا إلى البحث عن أساليب جديدة للحد من نفوذ الجماعات التابعة لتنظيم القاعدة، أو ما يطلقون عليه مسمى الاسلام المتطرف، مثل الجماعات المرتبطة بالحركات الاسلاموية، وعليه قاموا بمضاعفة مبادرات الدعم العامة وإقامة المؤتمرات التي تناقش دور قيادات الصوفية المحتمل، في ترسيخ الديمقراطية"⁽³⁾، وكذلك فإن الفراغ الروحي الذي أصبح يعيشه الإنسان المعاصر، قد أدى إلى ظهور تيار عالمي يدعو إلى ضرورة العودة إلى الدين الذي يمثل التيارات الروحية كتيار مؤهل للحوار والتعايش بين الأديان والحضارات والثقافات، فالزاوية الجزائرية بمختلف تسمياتها ومصادرها التأسيسية، تمكنت وبقوتها الذاتية وحنكتها من التعامل مع الأحداث والتطورات، فتحوّلت وظائفها إلى إستراتيجية تتماشى مع التغيرات الراهنة في المجتمع الجزائري خاصة، والدول العربية عامة، بما يحفظ لها رسالتها ودورها الديني، المرتبط بالوجود الاجتماعي في ثوابته ومتغيراته، كما قد يستغل الديني السياسي لتوسيع فضاءه وتحقيق أغراضه.

¹ - عبد المنعم، منال، مرجع سابق ص 45.

² - بوبكير، أمل، مرجع سابق ص 27.

³ - بالاندييه، جورج، (1986)، الأنثروبولوجيا السياسية، ترجمة، جورج أبو صالح، دط، بيروت، مركز الإنماء القومي، ص 93.

الخاتمة:

من خلال هذا العمل يمكن القول أن التصوف في المجتمعات المغاربية يعبر عن احد اهم تجليات التدين منذ وصول الاسلام الى المنطقة، وهو تصوف سني معتدل، يجمع بين العقائد السنية، وبين الزهد والتشفق الصوفي، الذي يهدف الى تربية النفس وتنزيهها عن كل ما هو دنيوي، ولذلك ازدهرت الطرق الصوفية في الفضاء المغاربي بما فيه الجزائر، التي تعرف انتشار العديد من الطرق الصوفية، ذات الصيت العالمي، وهي زوايا منتشرة في مختلف ربوع الوطن، وتقوم بجملة من الوظائف والادوار، التي تراجعت في الفترة الاخيرة، خاصة الدور التعليمي بعد بروز المدرسة العمومية، واقتصار الزوايا على تحفيظ القرآن الكريم، وتخريج الائمة، الا أن الزاوية العلوية والتي يقع مقرها في ولاية مستغانم، حاولت التكيف مع التغيرات التي يشهدها العالم، وذلك بإخراج التصوف من الزاوية والكتاتيب، وتلك الصورة النمطية لل دراويز والمساكين، الى عالم التكنولوجيا والاستثمار، وتويع المريد الى شخصية متحضرة وملمة بلغة العالم والسوق، وتكنولوجيا، مع الحفاظ في نفس الوقت على جهور المريد، الملتزم بدينه واخلاقه الاسلامية، وتربية الروحية التي تعكس البعد الصوفي وتجعل منه ماركة عالمية، عن طريق خلق مؤسسات استثمارية وربطها بالقيم الصوفية المستمدة من الاسلام، وبذلك اصبحت الزاوية العلوية همزة وصل بين الجانب الروحي التعبدي وبين الجانب الحداثي العملي، وهي تسعى الى تعميم تجربتها واستقطاب الشباب ذوي الكفاءات العالية لتقديمهم كنموذج للمسلم المتحضر، الذي يستطيع التكيف بين القيم الدينية المقدسة والقيم الدنيوية العادية.

النتائج:

- 1- نعيش اليوم عودة الديني بمختلف تجلياته الروحية والعقدية والسلوكية.
- 2- التدين اليوم هو مصدر للتمايز ولصناعة الغيرية.
- 3- التصوف يهدف الى العناية بالجانب الروحي والجانب الاجتماعي والسياسي.
- 4- الزاوية العلوية تجمع بين التربية الروحية والقيم الوطنية والعالمية.
- 5- التصوف ساهم في اعادة بعث الشخصية الوطنية في زمن الاستعمار.
- 6- اغلب الزوايا في الجزائر انخرطت في النضال السياسي والعسكري ضد الاستعمار.
- 7- الزوايا اليوم تعمل على تحديث المجتمع دون المساس بمقوماته.
- 8- الزاوية العلوية تراهن على القيم الاسلامية والانسانية لصناعة انسان الغد.

التوصيات:

- 1- ضرورة الإهتمام بالتدين المحلي وتوظيفه في عملية التنشئة الاجتماعية.
- 2- ضرورة تمكين الزوايا من إستعادة دورها الحضاري، كمنابر علمية وفقهية تشريعية.
- 3- ضرورة لفصل الواضح بين الزاوية كمؤسسة دينية تعليمية، وتربوية، وبين مظاهر الدروشة والعبث.
- 4- ضرورة تمكين الزوايا من تسيير الأوقاف الإسلامية، ومساعدتها على خلق مشاريع إستثمارية شبابية.
- 5- ضرورة إستجابة الزوايا كمؤسسات دينية للطورات الحاصلة تكنولوجيا، خاصة في التعليم والتكوين.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن مرزوق، الخطيب، (1981)، المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، ط1، الجزائر، المؤسسة الوطنية للنشر.
2. إلياد، مرسيا، (2009)، المقدس والعادي، ترجمة عادل العوا، ط1، لبنان، دار التوزيع للطباعة والنشر والتوزيع.
3. بالاندي، جورج، (1986)، الأنثروبولوجيا السياسية، ترجمة، جورج أبو صالح، دط، بيروت، مركز الإنماء القومي
4. البريدي، عبد الله، (2008)، السلفية والليبرالية اغتيال الإبداع في ثقافتنا العربية، ط1، المغرب الأقصى، المركز الثقافي العربي.
5. بن تونس، خالد، (2009)، التصوف الإرث المشترك، ط1، زكي بوزيد للنشر
6. بوبكير، أمل، (2012)، التصوف والحداثة في دول المغرب العربي، ط1، الجزائر، المسبار مركز الدراسات والبحوث.
7. جرين، نايل، (2017)، الصوفية نشأتها وتاريخها، ترجمة صفية مختار، دط، مصر، مؤسسة هنداوي.
8. حنفي، حسن، (1998)، في الثقافة السياسية أراء حول أزمة الفكر والممارسة في الوطن العربي، دط، دمشق، دار علاء الدين للنشر.

9. خالد، محمد، (1999)، التحولات الاجتماعية والممارسات الدينية (51 – 66) مجموعة من الباحثين، وقائع الملتقى أي مستقبل للأنثروبولوجيا في الجزائر، تيميمون 22/23/24/ نوفمبر 1999، وهران، الجزائر منشورات الكراسك.
10. دوان، جلبير، (1991)، الخيال الرمزي، ترجمة على المصري، ط1، لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع
11. دوبار، كلود، (2008)، أزمة الهويات تفسير تحول، ترجمة رندة بعث، دط، دار المكتبات الشرقية.
12. ربيع، محمد، (2015)، الانثروبولوجيا الدينية ظاهرة التصوف الإسلامي: نشأته ومصادره (01 – 14)، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، الجزائر، العدد 18.
13. روا، أوليفيه، (2012)، الجهل المقدس زمن دين بلا ثقافة، ترجمة صالح الاشمر، ط1، لبنان، دار الساقى.
14. زين الدين، احمد، (2018)، الديني والدنيوي قراءة في فكر مرسيا الياد، ط1، لبنان، بيسان للنشر والتوزيع.
15. سالم، صلاح، (1991)، تجليات العقل السياسي ومستقبل النظام العربي، دط، القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر.
16. سعد الله، أبو القاسم، (1998)، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، الجزائر، دار الغرب للنشر.
17. عبد المنعم، منال، (1990)، التصوف في مصر والمغرب، ط1، منشأة المعارف للنشر الاسكندرية.
18. عمارة، محمد، (2004)، مقالات الغلو الديني واللا ديني، ط1، مصر، مكتبة الشروق الدولية.
19. غرانج، هوغلا، (2016)، نكران الثقافات، ترجمة سليمان الرياشي، ط1، قطر، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات،
20. قابو، امينة، كرايس، الجيلالي، (2020)، الشباب الجزائري والعمل التطوعي المكانة الاجتماعية والهوية دراسة ميدانية جمعية جنة عارف العلاوية انموذجا (148 – 163) مجلة مقاربات، المملكة المغربية، العدد 39، المجلد العشرون.

21. كايوا، روجيه، (2016)، الانسان والمقدس، ترجمة سمير ريشا، ط1، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية.
22. لانغ، مارتين، (2014)، ما الصوفية، ط1، دمشق، سوريا، دار الفرق للنشر.
23. محمد عابد الجابري، (2004)، الدين والدولة وتطبيق الشريعة، ط2، بيروت، لبنان، مركز الدراسات الوحدة العربية للنشر.
24. المسيكني، فتحي، (2018)، الايمان الحر أو ما بعد الملة مباحث في فلسفة الدين، ط1، المغرب الأقصى، مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع.
25. المصري، سعيد، (2019)، تراث الاستعلاء بين الفلكلور والمجال الديني، ط1، مصر، مؤسسة بتانة.
26. مؤيد، صالح، (2002)، علم الاجتماع: الموضوع والمنهج، ط1، عمان الاردن، دار المجدلاوي للنشر.
27. نوريس، بيبا، انغلهارت، رونالد، (2018)، مقدسات وعلماني الدين والسياسات في العالم، ترجمة وجيه قانصو واحمد مغربي، ط1، قطر، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
28. هابرماس، يورغن، راتسنغر، جوزيف، (2013)، جدلية العلمنة العقل والدين، ترجمة حميد لشهب، ط1، لبنان، جداول للنشر والترجمة والتوزيع.
29. هابرماس، يورغن وآخرون، (2013)، قوة الدين في المجال العام، ترجمة فلاح رحيم، ط1، العراق، مركز دراسات فلسفة الدين.